الباب الأول

رؤية فيما يجري الآن

يدفعنا الطموح دومًا إلى ترقب الأفضل، وهو ما يدفعنا بدوره إلى محاورة النفس ونقد الذات، وهذا ما سنحاول أن نقوم به في الأسلوب التربوي الذي يسير به العمل في مرحلة المراهقة، وهي بالقطع ليست آراء نهائية قاطعة، إنما هي مجرد نظرات تحتمل الصواب والخطأ وتدعو إلى التفكير أملاً في الوصول إلى عمل أرقى وإنجاز أفضل.

١ - مرحلة المراهقة ليست ٣ سنوات

علميا.. تبلغ فترة المراهقة من ٧ إلى ١٠ سنوات، وهى الفترة التي تحدث فيها تغيرات نفسية وعقلية وجسدية للمراهق، وهى تبدأ في مصر مثلا من سن ١٢ سنة للذكور، و١١ سنة للإناث، أي حسب نظام التعليم المصري، فهي تبدأ من بداية المرحلة الإعدادية تقريبا.

والسؤال..

إذا كانت مرحلة المراهقة تبدأ من المرحلة الإعدادية، فلماذا تنصب كل برامج مرحلة المراهقة على مرحلة التعليم الثانوي فقط؟ صحيح أنها تشتد وتصبح عنيفة في هذه المرحلة من سن ١٥ إلى سن ١٨ سنة، ولكن هل من الحكمة أن ندخل غمار المعركة وهى في عنفوانها دون تمهيد مسبق لها، وإذا أضفنا إلى ذلك نظام التعليم المصري الذي يطبق نظام الثانوية العامة على عامين، تصبح فرصة المشرف للتعامل مع المراهقين حسب منهج علمي يحتاج إلى زمن ليس قصيراً -هي سنة واحدة فقط- فإن لم ينجح معه تتضاءل فرصة النجاح بل والتعامل معه في العامين القادمين.

وفى برامج الأشبال، لا يتم التعامل في المرحلة الإعدادية على أنها بداية مرحلة المراهقة، وفى أحيان يتم التعامل معها على أنها مرحلة الطفولة وهو ما يعنى التعامل مع مرحلة بمنهج مرحلة أخرى.

وربما تمت الإشارة من بعيد على أن المرحلة الإعدادية تمثل بالفعل بداية مرحلة المراهقة، إلا أن برامج الأشبال لا تتناول هذا الأمر بجدية تشعر معها أنها بداية مرحلة خطيرة ومهمة في الدعوة، وهو سبب قوى جدا يجعل الطلبة تتسرب من بين أيدي المشرفين في المرحلة الإعدادية، وما يتبقى منهم يصل إلى مشرفي ثانوي مهلهلاً غير معد لمرحلة جديدة من المفترض أنها الأعنف في تاريخ الطالب أو المراهق، ليجد المشرف نفسه مضطراً لأن يبدأ من جديد في فترة زمنية غاية في الضيق والحرج، والنتيجة جهد كبير ونتيجة ضعيفة.

أرى أنه يجب تعديل النظرة إلى فترة مرحلة المراهقة لتشمل معها المرحلة الإعدادية، على أن يعي مشرف الإعدادي ذلك جيداً،ويفهم أنه مسئول عن تسليم المراهق إلى مشرف ثانوي وقد تخطى مرحلة معينة لتتكامل الأدوار ولا يضيع الجهد هباء منثوراً.

أو أن تنضم المرحلة الإعدادية للمرحلة الثانوية وتصبح مرحلة واحدة بلجنة واحدة تسمى لجنة المراهقة (افتراضاً).

أو أن تنضم السنة الأخيرة على الأقل من التعليم الإعدادي إلى مشرف ثانوي ليتسع له الوقت قليلاً للتعامل مع هذه المرحلة في أعنف فتراتها.

٢- التدريب

الهدف الأساسي للتدريب هو رفع المهارات الأساسية للمشرفين بما يخدم أهداف العمل، وهى عملية لا غنى عنها لأي مؤسسة تهدف إلى النجاح واستمراره.وعملية التدريب موجودة بالفعل للمشرفين في هذه المرحلة، إلا إنها لا تؤتي ثمارها المرجوة، مع الاعتراف بوجود نشاط فعلى في إعداد عدد لا بأس به من الدورات اللازمة لسير العمل.

إلا أن الطبيعي والمنطقي أنه إذا تمت عملية التدريب بصورة صحيحة، أن ينعكس هذا على أداء المشرف فيصبح أكثر معرفة وأكثر خبرة وأكثر كفاءة في الأداء،وهو ما ينعكس على العمل ككل.

إلا أن هذا لا يحدث..

فتطور أداء المشرف قياساً لما يتم تدريسه من دورات.. طفيف جدا بصورة تمكننا من القول بأن عملية التدريب لم تصل بعد إلى مستوى النجاح المنشود. وأن المسألة أصبحت نوعًا من إرضاء النفس وتسديد الخانات والاكتفاء بالكم لا بالكيف.

وأرى أن السببين اللذين يرجع إليهما هذا الخلل هما:

أولاً - الاهتمام بالتدريب النظري دون العملي، فلا يكفى أن يتلقى المشرف دورة لمدة ساعتين أو ثلاث لنقتنع أنه قد تلقى دورة في مفهوم ما، بل لا بد أن يتبع هذه الدورة تطبيق عملي للدورة أثناء عمله، في تنفيذ الخطة المكلف بها عن طريق متابعة مسئوله المباشر في العمل في منطقته، حيث يقيم مدى استيعاب المشرف عمليا للدورة عن طريق إسقاطها على واقع العمل التنفيذي بدرجات متفق عليها، إذا تحقق ذلك نستطيع أن نقول إن الدورة قد آتت ثمارها، وإن جهدنا لم يضع هباء منثوراً ،وتصبح كل دورة للمشرف إضافة فعلية له وللعمل وللدعوة.

ومن العجب أن يحذر المشرفون في بعض الأحيان من كتابة ما يتلقونه من دورات، والنصح بتحصيل الفائدة منها عن طريق الاستماع فقط، ثم يطلب بعد ذلك من المشرف أن يطبقها.. كيف ؟! وماذا سيتذكر من دورة استمرت ساعتين أو أكثر بعد يومين أو أسبوع أو شهر.

لماذا نضيع جهدنا بهذه الطريقة ؟!

ثانياً- نحن نكتب الدورة مرة واحدة كل فترة طويلة، وكأنها قانون ثابت لا يتغير، فأصبح ما نتحدث عنه اليوم كان يحتاجه المشرف منذ ٥ سنوات، واليوم هو لديه مشاكل أخرى ويحتاج إلى مهارات أخرى ومعلومات أخرى، لابد من التطوير المستمر للدورات تبعاً لمتغيرات العصر وتغير الأفكار وتطور المجتمع.

٣- العجز الدعوى خارج المسجد

يمثل المسجد حجر الزاوية في الدعوة إلى الله، واستغلال المسجد في الدعوة كان أمراً يتم دون مشاكل تقريبا لفترة غير قصيرة من الزمن، إلا أن التغيرات السياسية الأخيرة ضيقت الخناق على المسجد، وجعلت التفكير في كيفية الدعوة خارجه أمراً ضرورياً لا فرار منه. ورغم كثرة الحديث عن هذا الموضوع، وظهور نظرية (الانفتاح على المجتمع) التي تنادى بالانطلاق خارج حدود المسجد والدعوة في النوادي ومراكز الشباب والمدارس، إلا أن النظرية لم تخرج إلى الإطار العملي حتى الآن. ويجد الجميع صعوبة بالغة في تطبيق الدعوة خارج حدود المسجد، ولم يخل الأمر من محاولات جادة من بعض المشرفين، إلا أنهم لم يلبسوا بعد فترة أن يستديروا متجهين مرة أخرى إلى المسجد حيث الحدود الضيقة جداً للدعوة.

إن مسألة الانفتاح واكتشاف أساليب جديدة للدعوة خارج المسجد عملية أكبر من محاضرة أو دورة تدرس للمشرفين، ثم يترك الأمر بعدها للاجتهاد الشخصي، بل هي مسألة صعبة تحتاج إلى دراسة وبحث كبيرين لشرح كيفية الانفتاح بدقة، كما أنه يتطلب تغييراً لأفكار المشرفين وتدريبهم على مهارات من نوع آخر مختلفة عن مهارات العمل المسجدي المحدود، ثم يتبع ذلك خطة محكمة يلتزم بها الجميع.

هكذا تتحقق النظريات الجديدة في عمل مؤسسي منظم، أما أن يتم الموضوع عن طريق طرح أفكار ثم يترك الأمر بعدها يسير كما يسير فهو حلقة أخرى في سلسلة إهدار الوقت والجهد.

٤- المناهج

أخيراً تم التفكير بجد في إعداد منهج واضح للتربية في مرحلة المراهقة، بعد سنوات ترك فيها منهج التدريس للمرحلة سواء في العمل العام أو الخاص لاجتهاد المشرفين، ولأي مشرفين سواء كانوا مبتدئين أو ذوى خبرة، فكان طبيعيا أن نجد مستوى رديئاً من المواد التي لا تخلو من ضعف في الفكر أو خطأ في التوجيه أو بعد عن أهداف العمل، وكأن مسألة المنهج مسألة بسيطة وسهلة من الممكن أن يقوم بها أي فرد دون مشكلة، وكأنها مسألة بديهية لا تحتاج إلى بحث أو دراسة أو تطوير.

ورغم أن خطورة الموضوع واضحة لا تحتاج إلى نقاش (من وجهة نظري)، إلا أنني أعتقد أن ما أخرها هو عدم وجود من يتصدى لها بجدية، لأن إعداد المناهج عملية صعبة وتحتاج إلى وقت طويل في البحث والتفكير.

ورغم أن خطوة وضع المناهج خطوة جيدة بالفعل وتمثل طفرة نوعية للعمل التربوي في مرحلة المراهقة، إلا أنه لا يزال يعتمد بدرجة أساسية على التلقين وحشد المعلومات دون التركيز على تغيير السلوك.

صحيح أن المعلومات النظرية تدفع إلى تغيير السلوك وتحسين الأخلاق، إلا أن التربية لا تكتمل بالشق النظري فقط، ولا يكفى أن يستمع الطالب إلى محاضرات عظيمة في حسن الخلق والسلوك الاجتماعي في الإسلام، ثم ينسى كل ذلك بمجرد أن يخرج إلى حيز التطبيق، والنتيجة.. حشد هائل للمعلومات النظرية دون أن يفرغ ذلك عمليا في الحياة اليومية، وتخرج لنا أجيال تتحدث ولا تعمل، وهو ما لا يتفق مع مبادئ الإسلام أو أهداف الدعوة.

إن شكوى الآباء تتزايد من سلوك أبنائهم داخل المنزل رغم حضورهم وانتظامهم في

حلقات المسجد وربما العمل الخاص، مما يجعلنا نسأل أنفسنا، إذا كنا لم ننجح في تغيير سلوك الطالب داخل أسرته وفى المدرسة وفى الشارع.. فماذا نفعل إذن ؟!

إن المناهج التربوية لا بد أن تتجه اتجاها قويا نحو تغيير السلوك عن طريق برامج عملية واضحة ومتدرجة ثم متابعة دقيقة من المربى المسئول، وعلى هذا الأساس يقيم النجاح لا على أي شيء أخر.

٥- الدعوة الفردية ونظرية المؤثرات

لا يمكن أن يحقق فرد ما أي نوع من أنواع التغير الحقيقي (تغير الأفكار والسلوك) بحيث يستمر هذا التغير، إلا عن طريق ما يسمى بالدعوة الفردية: سواء تمت هذه العملية باتفاق بين الطرفين، الداعي والمدعو أو بصورة غير متفق عليها عن طريق انغماس المدعو في بيئة تدفعه إلى التغير بطريق القدوة.

ولقد كتبت العديد من الدراسات في الدعوة الفردية لخطورتها وأهميتها في مجال الدعوة إلى الله، حتى إن إحدى الدراسات توصلت بحسبة رياضية بسيطة إلى أنه إذا قام فرد ما بدعوة فرد آخر ونجح في دعوته بعد عام، ثم قام الشخصان بدعوة فردين آخرين، فإذا قدر لهما النجاح بعد عام أصبحا أربعة ثم الأربعة يصبحون ثمانية وهكذا..

وتوصلت الدراسة النظرية (العددية) إلى أنه بعد ٣٠ عاماً سيصبح عدد الأشخاص المدعوين فرديا إلى مليار فرد.

لقد قرأت هذه الدراسة منذ ما يقرب من عشر سنوات ومنذ أن قرأتها ، وأنا أتساءل إلى الآن لماذا لا تسير هذه المتوالية (المعجزة) سيراً طبيعياً يحقق آمال المسلمين كلها بعد ثلاثين عاما فقط وهو رقم زهيد في عمر الدعوات.

وتوصلت إلى أن هناك عدة عوامل مهمة نغفلها تعوق تحقيق حلم الدعوة الفردية وهى:

١- صعوبة الدعوة الفردية وزمنها تجعل معظم المشرفين ينصرفون عنها إلى أعمال أكثر سهولة نسبيا، والتي تعنى بعقد اللقاءات والكلمات وربما المسيرات والمؤتمرات.

٢- عدم توافر مؤهلات ممارسة الدعوة الفردية للمشرف، وأولها على الإطلاق: دراسة الدعوة الفردية دراسة نظرية كافية قبل الإقدام على الممارسة العملية. يضاف إلى ذلك الصفات الشخصية من الصبر والذكاء والحماس والثقافة الدينية وعلم النفس، مما يعرض الداعي للفشل في أول الطريق، ويعوقه عن المحاولة مرة أخرى، فينصرف عنها إلى أعمال أخرى يستنفد فيها طاقته.

٣- عدم الالتفات لنظرية مهمة جدا في التربية، وهى نظرية المؤثرات بمعنى أن المدعو يكون تحت تأثير عدة قوى مؤثرة داخل المجتمع مثل الأسرة، الأصدقاء، الإعلام، والداعية نفسه...والنجاح والفشل مع المدعو يكون في اتجاه محصلة القوى المؤثرة على المدعو. ونحن نتصور دائماً أن المدعو يقع تحت قوة التأثير التي نصنعها نحن فقط، ونتعجب بعد ذلك من عدم استجابته لنا، إلا أن الواقع يقول إن قوة تأثيرنا تعد أضعف القوى المؤثرة على الإطلاق.

إن أخذ هذا العامل في الاعتبار يدعونا إلى أن نحاول أن ندخل المدعو في بيئة مختلفة تزيد قوة التأثير الإيجابية في اتجاهنا وتقلل قوى التأثير السلبية في أي اتجاه آخر عن طريق إشغال وقت المدعو بصورة إيجابية سواء كان المدعو معنا أو بعيدا عنا، وهو ما يعرف بـ (المساحة المشتركة)..وهى المساحة التي يقف عليها الداعي والمدعو والتي تمكن الداعي من الاتصال بالمدعو أطول فترة ممكنة.

٤- عدم الصبر والتوقف عند مرحلة معينة دون إكمال بقية المراحل مما يعد إهداراً للجهد والوقت والمال أيضاً.

٥- نتيجة لظروف خارجة عن إرادة المشرف.. لا يستطيع أن يتحكم فيها، لظروف سفر المدعو أو ضغط الأسرة بسبب الدراسة أو الخوف عليه....إلخ.

٦- عدم الاهتمام - بصورة بحثية جادة - بتطوير دراسات الدعوة الفردية فتظل المشاكل كما هي دون حل.

٧- الاستهانة بالدعوة الفردية وسط كم الأعمال الكبير الذي يستغرق المشرفين والطلبة مما يجعل الدعوة الفردية في بند متأخر في جدول الأعمال بالرغم من أهميته البالغة.

٨- يضاف إلى ذلك أن مشكلة الدعوة الفردية في مجال الثانوي تعتمد على طلاب غير مكتملي التربية والخبرة مما يقلل من فرص نجاح الدعوة الفردية، ويجعلنا في حاجة إلى برامج أخرى غير تقليدية لتحقيق تلك المعادلة الصعبة.

٦- الوقت المطلوب لدعوة الطالب

يظن البعض أنه لا ينبغي أن نثقل بالأعمال الدعوية على طالب ثانوي، حتى لا نضغط عليه من ناحية وحتى لا نشغله عن المذاكرة من ناحية أخرى، وأرى أن هذا التصور غير صحيح لسببين:

الأول- إننا إذا تصورنا أننا نشكل ضغطاً على الطالب المراهق بالأعمال الدعوية، فهذا يعنى ببساطة أننا غير ناجحين في الدعوة معه، فالطالب لا يمكن أن يستقبل دعوتنا بسلام وبهدوء ويتفاعل معها إلا إذا أشعرناه بالرغبة في أعمالنا والاستمتاع بها والفائدة منها (نظرياً وعملياً)، فلا يمكن أن نقنع شخصا بالتغيير وهو يريد في كل لحظة أن يهرب منا.

الثاني- إن معظم الطلبة لا يذاكرون، ولكنهم يتعللون بذلك لكل الناس للهروب من المواقف، يقولون ذلك لآبائهم ولمدرسيهم ولمشرفيهم التربويين، لدرجة تتصور معها أنهم لا يشاهدون التلفاز ولا يتحدثون في التليفون ولا يتسامرون مع أصدقائهم!!، إن الطالب يضيع وقتا كبيراً فيما لا طائل منه خارج إطار المذاكرة، وعلينا أن نستفيد بهذا الوقت في صالح الدعوة.

إننا نريد أن ندعو الطالب طيلة اليوم بما يتوافق مع ظروفه ومتطلباته، نريد أن نذهب نحن إليه أكثر مما يأتي هو إلينا، بمعنى أن نفهم ماذا يريد أن يفعل ثم نرتب العمل الذي يجعلنا نؤديه معه فنتعايش معه ونؤثر فيه.

إن الدعوة يجب أن تكون مستمرة لا تتوقف حتى في أوقات الامتحانات، والمشرف النابه هو الذي يفهم كيف يتعامل مع الطالب ويؤثر فيه في مختلف الظروف وفى كل الأحوال.

٧- التعايش

لا يمكن أن تتم عملية التربية بالتحكم عن بعد- أي عن طريق إصدار الأوامر والتوجيهات - أو حتى إلقاء المحاضرات، فتغيير السلوك لابد أن يتم عن طريق التعايش بين المشرف والمدعو، وليس المقصود بالتعايش أن يترك المشرف أعماله ويجلس مع المدعو ليل نهار، ولكن المطلوب أن يعامل من يدعوه بروح المربى الذي يحرص بصدق على تغييره، ويراقب تصرفاته بحساسية بالغة سواء كان معه أم لم يكن، وأن تتسم العلاقة بينهما بالصداقة والمحبة والاحترام مع المحافظة على قدرته على التوجيه والتأثير.

وربما يجتمع المشرف والمدعو في مكان واحد.. لكن جدارا عازلاً بينهما يمنع كلاهما من أن يصل للآخر.

فالتعايش مفهوم معنوي قبل أن يكون مفهوما مادياً، والمشرف الناجح هو الذي يشعر الطالب أنه معه بحديثه وأفكاره وتوجيهاته حتى دون أن يجمعهما مكان واحد.

٨ - أزمة الابتكار

لماذا نخرج دائماً أجيالاً لا تبتكر.. ولا تريد أن تبتكر؟!!، بل وتعتبر الابتكار عيباً وخطيئة ! لأنهم يرون أن الابتكار يعنى تعديل ما قاله آخرون.. وهؤلاء الآخرون هم المربون الكبار أحياناً أو المسئولون أحيانا أخرى، والنتيجة جيل من المقلدين ينظرون وراءهم دائماً ودائمو السؤال عن التعليمات الجديدة والأفكار الجديدة والآراء الجديدة.

إننا نريد مشرفاً لديه قدرة على نقد الواقع والتفكير الذاتي وإنتاج الجديد والنظر للأمور من زوايا جديدة، ولا يتم ذلك إلا بالتشجيع على الابتكار بوضع المكافآت والسماح بالخطأ وتشجيع الحوار والمناقشات للأفكار الجديدة حتى وإن كانت غريبة.

إن الابتكار والإبداع يؤدى إلى النشاط والحماس والتطوير، والتقليد يؤدى حتما إلى الكسل والجمود.

لماذا هذا الدليل؟

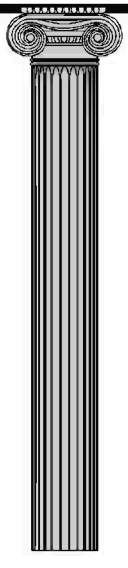

يعانى المشرفون من عدم وجود برامج واضحة ودقيقة لأعمال تربوية دورية، مثل اللقاء متعدد الفقرات واللقاء الرياضي والاعتكاف... إلخ، رغم عدد مرات تكرار مثل هذه الأعمال في العام بل في الشهر الواحد بالنسبة لبعضها، إلا إنه لم تصدر لها ورقات عمل رصينة تراعى أهداف العمل وتضع منهجه وتقيم نتائجه، وهو ما أدى إلى اجتهاد المشرفين كل على قدر خبرته وحماسته وثقافته، وفى النهاية لا يوجد برنامج ثابت وواضح ومدروس.

أدى هذا بالضرورة إلى قلة كفاءة الأعمال خصوصاً من المشرفين المبتدئين، وعندما لا يكون هناك منهج ثابت يسير عليه الجميع تصبح الفرصة متاحة أكبر للخطأ سواء في التوجيه أو في صحة المعلومات.

هذا بالإضافة إلى أن المشرف الذي سيقوم بعملية إعداد البرامج سواء كان مبتدئاً أو خبيراً، سيتكلف وقتاً وجهداً في التفكير والبحث والتحضير بما سيشغله عن عمله التنفيذي المكلف به أصلاً.

من هنا نشأت فكرة أن يوضع دليل للعمل التربوي في مرحلة المراهقة،حاولنا فيه أن يحتوى على كل التفاصيل المطلوبة لإتمام عمل ناجح ذى كفاءة، من أهداف ومواد مكتوبة وشرح لأسلوب العمل ونهاية بالتقييم، وهو دليل طيع الاستخدام للمشرف سواء كان مشرفاً مبتدئاً أو من ذوى الخبرة.

وهذا الدليل ليس نهائياً، إنما هو في حاجة إلى تطوير مستمر واستحداث وسائل ونظريات جديدة للعمل.

إننا نكرر أن الدليل مجرد بداية، في حاجة إلى استكمال اليوم وتطوير في الغد، وهذا لن يحدث إلا إذا وضع كل مستخدمي الدليل ما يستخدمونه من برامج تحت مجهرهم الدعوى الدقيق، فيؤيدون النافع المفيد وينتقدون غير الصالح للعمل ويقترحون له الجديد.